سيرة الأثرياء

لوليم ماكبيس ثاكري

— ٢ —

وبينما قلب « إمي » الصغير يعاني ما يعاني من لواعج الحب طافت الآنسة « كرولي » إلى بيتها في « بارك لين » تصحبها صديقتها العزيزة « بكي » التي كان عليها أن تمضي بها قليلاً . ذلك لأن الجو المعتقة . وذلك الشهيّ من ألوان الطعام قد أثّرا بها قليلاً .

ولم يكن آل « ريجز » . وهم الصحاب القدماء للسيدة العجوز براضين أبداً عن مجيء « بكي » . ولقد زار الكبتن « رودن » عمته غير مرة . فقد كانت تكنات فرقته تقع في مكان قريب . ولا شك أنه أتاح لنفسه نظرات خاطفة الى محاسن « بكي » الفاتنة .

وحين تقدّمت الآنسة « كرولي » إلى الشفاء بفضل تطبيب الآنسة « بكي » البارع . تالت الرسائل من سير « بت » يلح في طلب عودتها . ولكن أخته لم تكن لترغب أن تفارقها صاحبتها الظريفة التي طالما سرّت عنها بملحها ولطائفها وظل صاحبنا يكاد يتميّز من الغيظ . وقد طال به الى « بكي » شوقه وحنينه

وعادت الصحبة بين « أميلي » و « بكي » سيرتها الأولى . بعد أن تولاها الذبول قليلاً . ذلك لأن كلتا الفتاتين كانتا مشغولتين بهموم النفس .

وجاءت الأنباء معلنة موت « لادي كرولي » ولو أن أحداً لم يبكِ على تلك السيدة التعسة . ولما حضر سير « بت » الى المدينة لعمل من أعماله الكثيرة . جاء بنفسه يرجو الآنسة « بكي » أن تعود . وقد بدت عليه حالة غير عادية أغاظت تلك الفتاة الرزينة وأهاجتها . ولما طلب اليها راجياً أن تعود لتصبح « لادي كرولي » بلغ منها التأثر مبلغه . وتوكيداً لقوله جنا هذا المجوز الخبيث المتصابي على قدميها .

ولشد ما دهش عند ما رأى الدموع في عينيها . وكان حقًّا عليها أن تبكي . ذلك لأنه أصبح لزاماً عليها أن تعترف . وقد فعلت . فقالت : اني يا سيده « بت » متزوجة من قبل .

وجاءت على الأثر الآنسة « كرولي » . وهي جدّ غضبى . ولكن الرجل العجوز قد عاد سيرته الأولى في سرعة تدعو الى الاعجاب . وطفق يضحك ضحكاً خافتاً ويقول لـ « بكي » يمكنك على أية حال أن تتخذيني صديقاً . وانه ليسرّه أن تعود الى قصره .

وإنه لمفهم كبير ذلك الذي فاتها . ولكن « بكي » هي واحدة من أولئك اللائي يتقبلن الحياة دائماً كما تجيء . ولقد اعترفت الآنسة « كرولي » التي أدهشها هذا الرفض فقالت : إنّه وإن يكن قد بلغ من التأثر مبلغه لهذا الشرف فان صلة من الصلات تربطني بمكان آخر . ولم تقل هي من صاحب هذه الصلة . ذلك لأنها أيقنت أنه على الرغم من عدم رضا السيدة العجوز عن آرائها الحرّة غير المقيدة فإنها إذا علمت بزواج هذه الوصيفة الفقيرة التي لا تملك درهماً بابن أخيها الحبيب الى قلبها . وهو « رودن كرولي » فإنها لابدّ سوف تسخط وتغضب .

وذلك الضابط المحدود الذكاء قد سحر السحر كله بذكاء الفتاة . وكان إعجابه بظرفها وذكائها يعقد لسانه .

ولقد جاء الأوان أن لا يظل أمر زواجهما سرًّا مكتوماً . وفي ذات صباح دخلت الخادمة إحدى الغرف في « بارك لين » فألفتها خالية . وألفت ورقة مكتوبة الى الآنسة « بريجز » — وهي بوشر واقعة تحت سلطان « بكي » — كُتب فيها تفصيل ما حدث . ووُجه فيها الرجاء الى الآنسة « بريجز » أن تكون لها عوناً عند الآنسة « كرولي » .

وزاد من غضب السيدة العجوز شدّة سخط سير « بت » عندما جاء ليعود بالفتاة الى « هامشير » .

وفي عاصفة من الغيظ والحنق بات يصبّ عليها وعلى « رودن » وابلاً من الشتائم .

وبينما كانت « بكي » تسعى الى زيادة دخلها كان آل « سدلي » يتلقون ضربة قاصمة . لقد تأثرت أعمالهم بحوادث القارة الأوربية ثم أفلسوا إفلاساً تامًّا . وآية هذا أن قد عرض للبيع بيتهم الواقع في ميدان « رسل »

وقد زارت « بكي » وزوجها مكان بيع المعروضات ، ودار عراك بين المزايدين على « بيانو » صغير كانت « أميليا » معجبة به . ثم رسا المزاد أخيراً على شخص يدعى كابتن « دوبن » .

ولقد أصبح السيد العجوز وزوجه و « إمي » يعيشون على ما يبعث به إليهم « جوزيف » من مال . ولكن ضياع الثروة لم يكن ضربة قاصمة كتلك الضربة التي تلقتها « إمي » في هدوء الموتى وصمتهم يوم جاءها النذير بأن « جورج » لم يصبح ذلك الرجل الذي كان مشتهى نفسها ومراد أحلامها .

وأن مسألة زواجه بها أصبحت موضوعاً غير قابل للبحث .

ثم إنّ نفس الأسباب التي أدّت الى إفلاس أبيها قد تدخلت اليوم مرة أخرى في حياتها تدخلاً أبعد مدى . ذلك أن نابليون قد عاد من منفاه . وأن أوربا كلها قد اجتمعت لتحاربه ولذلك فقد أصبح من المحتمل أن يدعى « جورج » و « وليم » ليسافرا مع فرقتهما الى خارج البلاد .

وقد لقي « دوبن » يوماً ذلك الشاب ولقي معه ورقةً من « أميليا » تحلّه من قيود خطبتهما . فتأثر لحلاوة كلماتها وعذوبتها قلب ذلك الفتى الاناني المستهتر .

وأمّا « دوبن » فما كان ليستطيع إخفاء شعوره الإخفاء كله . ذلك بأن « أميليا » كانت عنده المثل الأعلى للمرأة الكاملة . وذلك بأن سعادتها كانت تعني عنده الدنيا وكل ما فيها . ولو لم تكن به القدرة على مشاركتها تلك السعادة .

وتذكر الفتيان سحرها ، وفتنتها ، وسلامة طويتها . وطاف بخاطر « جورج » طائف من الاحساس بقلة التقدير لذلك الحب الذي ما قدره حق قدره ، فكان سبباً في قلة العناية بتلك الفتاة .

لذلك ولما أبداه « دوبن » من حجج لاقناعه . ذهب « جورج » لتوّه وساعته الى البيت الريفي الصغير ليُدخل السرور على ذلك القلب المحب الساذج . الذي لم يذق في الشهور الأخيرة غير مرارة اليأس . فلم تلبث الفتاة إلاّ قليلاً حتى عادت الى وجنتيها حمرة الورد . وحتى برقت عيناها الجميلتان .

وفي الوقت نفسه لم تكن الحياة عند « بكي » كما رسمتها في مخيلتها سلاماً وشهداً . ذلك لأن عمة « رودن » لم تصفح عنه أبداً .

وإن كان هو وزوجته يعيشان حتى ذلك الحين على الاستدانة فإنه سيجيء يوم تبطل فيه هذه الاستدانة .

وقد كانت السيدة « بيوت كرولي » بوشر صاحبة الأمر والنهي في « بارك لين » وهي لم تترك فرصة للإشارة الى خبث « رودن » وخبث زوجته الصغيرة الماكرة إلا انتهزتها .

وكانت تلك السيدة ترى أن خير حلّ لهذه المشكلة هو أن يؤمر « رودن » باللحاق بفرقته في خارج البلاد .

وكذلك لما سمع والد « جورج » ، ذلك التاجر العجوز القاسي القلب بأن ابنه قد جدّد عهد صلته بأميليا توعّده بقطع صلاته به . وكذلك بحرمانه من كل عون . وبعد جدال عنيف ترك « جورج » البيت الذي قدر عليه أن لا يعود إليه أبداً .

ثم أعدّت العدّة لزواج لا تحيط به الضجة . وذلك بفضل مساعدة « دوبن » وذهب العروسان لتمضية بضعة أيام في « بريتون » على أن يلحق بهما « جوزيف » بعد قليل .

وجاء « دوبن » يوماً مسرعاً يحمل « لجورج » نبأ هامّاً . وهو أنه قد أفشى سرّ زواجه لأبيه . وكذلك فإن أمراً قد صدر بسفر الجيش الى بلجيكا لملاقاة « بونابرت » .

ورأت « بكي » بعينيها الفاحصتين ما خفي على فطنة « أميليا » . وهو أن « دوبن » صديق « جورج » كان بها مولعاً مفتوناً .

وسافرت « أميليا » و « جورج » الى لندن ليدبرا أمورهما . ذلك لأنه تقرر أن تصحب السيدات أزواجهنّ الى « بروكسل » وفي صحبتهنّ « جوزيف » . ولم تحزن الزوجة الصغيرة لفراق « بكي » الفاتنة الماكرة .

وكل ما وصلهما من والد « جورج » كان مبلغاً من المال مقداره ألفان من الجنيهات . على أن لا يدفع للزوجين بعد ذلك أي مبلغ آخر مهما يكن قليلاً . ذلك لأن « جورج » لم يبقَ له مكان بين أفراد عائلة « سيورز » .

وكذلك شدّوا الرحال الى «بروكسل» حيث كانت تسود الجرأة والشفقة . وحيث كان معروفاً أنه ما قليل سوف تسري الجيوش التي لا تقهر مسألة « نابليون » . وفي الوقت نفسه فان الجوّ السائد كان جوّ البهجة والمرح . فكان الزوّار يفدون الى « بروكسل » زرافات ووحداناً . وكأنهم جاؤوا ليشهدوا رواية في ملعب .

ولا حاجة الى القول ان « لقاء » آل «كرولي» كان أمراً لا بد منه . وكانت « إيمي » ترقب نجاح صديقتها السابق في دنيا الحياة العامة التي خاضت هي غمارها الآن . أما «جورج» فقد كان مستعداً غير حر .

وفي الخامس عشر من «يونيو» أقامت «دوقة ريتشموند» حفلة راقصة . وكانت ليلة مشهودة . وفي هذا المجتمع اللامع كانت زوجة « رودن كرولي » محط الأنظار من كل جانب . فقد كانت في أبهى زينتها . وكان سلوكها كأنما هي عاشت طوال حياتها في مثل هذه الأوساط .

أما « اميليا » فقد جلست منطوية على نفسها . بينما كان «جورج» يجري وراء «بكي» التي كانت ملتقى إعجاب الجماعة . وبعد أن عانت «اميليا» ما عانت من تجرع غصص الغلة . ومن معاناة مضض الإهمال والترك . تقدمت الفتاة المسكينة بالرجاء الى الصديق الوفي « دوبن » في أن يسير بها الى بيتها .

وما إن جاء الفجر حتى شاعت أخبار مشؤومة . وذهب «وليم» لملاقاة صديقه . وكان هذا على مائدة الميسر . ولكن الأنباء التي جاء بها «دوبن» قد أرجعته الى صوابه . وبينما كان هذا عائداً أدراجه أيقن أنه في طريقه لملاقاة الصدام . وهو صدام قد لا يرجع منه أبداً . وطاف بخاطره بغتة خاطر يشوبه الحزن المضني ، والأسف البالغ على زواجه الذي كان رائده فيه الطيش والنزق .

وكذلك طاف بخاطره خاطر قسوته على زوجته . تلك المخلوقة الظريفة اللطيفة . ولكن لات ساعة مندم .

أما قصة « واترلو » وحديث مجدها فقصة معروفة لا تحتاج الى إعادة . ولكن ليس هذا مانع أن نقول إن آلافاً قد فقدوا حياتهم ليصلوا « نابليون » نار المزعة الساحقة .

وكان من بين هؤلاء الرجال « جورج اوسبرن » .

أما « اميليا » فقد ظلت تنتظر وقلبها مفعم بالحب . وندر الشؤم ترفرف حولها بجناحيها . وكان « دوبن » يعني بأمرها في إبان عسرتها . وهو الذي أنبأ والد « جورج » بقصتها . وكانت هي يومئذٍ على وشك أن تضع طفلاً .

وجاء الوالد ليزور قبر ولده في « بروكسل » . ولكنه رفض أن يعد الى « اميليا » يد المعونة . ذلك لأنه كان يكرهها .

وقد نفد المال الذي كان في يد « جورج » منذ زمن بعيد . ذلك لأنه وزوجه كانا يعيشان عيشة البذخ والترف . وكان « جورج » لا يضن بالمال على ما تشتهيه نفسه أبداً . ولم تعلم « أميليا » أبداً علم اليقين قلة ما كان في يدها . وكذلك لم تعلم علم اليقين مدى المعونة التي هي مدينة بها « لدوبن » . وقد فعل « دوبن » ما فعل لأنه كان المنفذ لوصية صديقه . وكانت — وقد أذهلها الحزن — لا ترى للمال قيمة .

ولما وضعت حملها . جاءها مولودها بأمل جديد . وأنشأ لها هدفاً تعيش من أجله بعد أن ذهب فارسها البطل الى غير رجعة .

وأنعشت الأمومة آمالها مرة أخرى . ولم يكن يعنيها شيء في هذه الدنيا سوى طفلها . ولما أعادها الصديق الوفي « وليم » الى انجلترا استقر المقام بها في البيت الريفي الصغير في « فلهام » حيث عاشت عيشة هادئة . وندرت نفسها لحب طفلها .

وإذا كان قومها قد راقبوا عن كثب تفاني « الكبتن دوبن » في تودده اليها . وفي اغداقه الهدايا عليها . وفي زياراته المتتابعة فان « اميليا » كانت في شغل عن هذا كله .

فلما جاءها يوماً ينبئها بأن أمراً قد صدر اليه ليسافر الى الهند حزنت على فراق صديق كريم . لا أكثر ولا أقل .

وهناك في باريس كانت « بكي » أمّاً لولد . وكانت تحيا حياة الناعمين . وتعيش عيشهم . وذلك على حساب الاستدانة التي كان « رودن » لا يزال قادراً عليها . وكذلك على حساب مهارته في لعب الميسر التي كانت تزيد في دخله .

ولكنها لم تر في ذلك ما يأخذ بيده الى الأمام . ثم أجمعا أمرهما على العودة الى لندن .

فهناك قد يستطيع أن يحصل على وظيفة تليق بضابط . وبواحد من آل « كرولي » .

وكانت عمته لا تزال قاسية ، متحجرة القلب . ولكن « بكي » كانت على ثقة من أنها بذكائها سوف تضمن لزوجها الإسعاد .

من أجل ذلك انتقلت هي وزوجها الى بيت أنيق صغير في شارع كرزون . ولما جاءت الأنباء تنعي الآنسة « كرولي » لم تأخذها الدهشة عند ما سمعا أن نصيب زوجها من الميراث قد انتقل إلى أخيه « بت » الذي كان يومئذ متزوجاً . والذي عرف كيف يتسلل الى فيوض فضل تلك العمّة .

ولم تعرف الحيرة السبيل الى قلب « بكي » بل كتبت خطاباً مهذباً الى « بت » تهنئه فيه بما ناله من ميراث كبير . وتتمنى له السعادة كلّها . وتحيي « لادي جين » ، وترجو وتأمل أن يسعد « رودن الصغير » يوماً بلقاء أهله الأعزاء

وهكذا مهدت « بكي » الطريق لعلاقات طيبة مع عائلة أخي زوجها .

وفي « هامشير » أصبح البارون الشيخ أكثر غرابةً في أطواره كلما تقدّمت به السن . وأصبح ميله الى صحبة الأوشاب أكثر وضوحاً . كما أصبح ولعه بالخمر أكثر شدّة وعراماً .

وقال المرجفون إن الحسناء الرائعة . إبنة الساقي « هوروكس » تطمح أن تكون « اللادي كرولي » . وقد كان حقّاً أن لها في البيت منزلة تتطاول لها الأعناق .

ولكن حدث ذات ليلة أنْ مقداراً من الخمر قد زاد عن حدّه . فصيب موت الشيخ النحس . فلما مات لم يحزن عليه أحد إلاّ — وهذا استثناء محتمل — الآنسة « هوروكس » التي فقدت بفقده مكانتها .

وتنفس « بت » الصعداء . ذلك لأنه أصبح الآن قادراً على أن ينظم بيت أجداده .

وجاء آل « رودن كرولي » يحضرون الجنازة . وكانت « بكي » مثال اللباقة والكياسة فكسبت رضا أخي زوجها — وهو ذلك المختال النحور — بالثناء على براعته وقدرته . وكذلك أسرت « لادي جين » بما أبدته من اهتمام بأطفالها . ولو أنه لا يمكن القول إن « رودن » الصغير قد لقي يوماً عندهم شيئاً من هذه الرعاية .

وعند ما عادت « بكي » وزوجها الى المدينة إنغمسا في حياة البهجة . تلك الحياة التي

كانت « بكي » حلية من حلاها . وقد عرف كل الناس — وبخاصة الرجال — أن من دخل بيت السيدة « كرولي » فانه لا يعدم البهجة والمرح .

وكان من المكثرين الإكثار كله من زيارتها « لورد ستين » الكبير . وهو رجل واسع الثراء وهو من تستطيع — اذا استعانت بجاهه وسطوته — أن تفتح كل باب مغلق .

وكان أصحابه الذين يجيء بهم يلعبون الميسر مع « رودن » الذي كان ينكش شيئاً فشيئاً .

وقد بدت المسكنة على وجه زوج السيدة « كرولي » . وكان أكبر سرور له في الحياة أن يصعد الى غرفة طفله ليلاعبه .

وكانت أم الطفل تذهب الى تلك الغرفة بين حين وحين . ولكن الطفل لم يكن ينظر منها بغير كلمات عابرة قبل أن تغادره لتذهب الى الأوبرا . أو الى المسرح أو الى واحد من مجالي اللهو التي كانت تضيع فيها أوقاتها كلها .

أمّا « أميليا » فقد كانت تحيا حياة هادئة مستقرّة . وهي راضية كل الرضا بتلك العيشة البسيطة . وكانت تناجي نفسها فتقول : ماذا يعنيني المال قلّ أو كثر . أليس عندي أكبر كنز في الدنيا أسهر على رعايته والعناية به ؟

وكانت المخطابات تصل الى « دوبن » في الهند . وفيها وصف لتقدّم الولد تقدّماً عجيباً . و « دوبن » يطرب لسماع هذا النبأ . كما يطرب لكل شيء يذكره بالمرأة التي أحبّ

ووصلت أنباء الحفيد الصغير الجميل الى سمع جده الشيخ « اسبورن » . وذلك عن طريق بنته التي لقيت الطفل في بيت آل « دوبن » حيث كان يلذ لفتيات البيت أن يروه .

وكان الشيخ القاسي القلب يصغي — في لذة — إلى أنباء حفيده في شوق بالغ يحدوه الحنان . وقد حانت يوماً الفرصة المنتظرة فدفعت به الجرأة إلى أن يعرض على الأم المسكينة مالاً إذا قبلت التخلي عن « جورج الصغير » وسمحت بأن يربيه جدّه التربية اللائقة بسليل بيت من بيوت المجد .

فأثار هذا العرض ثائرة « أميليا » على الرغم من طبعها الهادىء . إذ كيف تقبل أن تضحي بأعز عزيز لديها . وبالمصدر الوحيد لسرورها في هذه الدنيا التي تزداد وطأة الفقر فيها شدّة . ذلك لأن أباها قد بدد ما يملك من مال قليل .

ولكن جاء يوم أيقنت فيه أنها بسلبها هذا قد تكون سبباً في حرمان ولدها من فرص لحياة رضيّة هو أهل لها . فرأت أن تتخلّى عن ولدها . وبها من الحزن ما بها .

ثم وُضع في الاتفاق شرط يسمح للأرملة الظريفة أن ترى ولدها كلما أرادت . وأقرّ هذا الشرط جدّ الولد .

[لها بقية] مبارك ابراهيم